كشف المستور في الحياة المدنية

(من البداوة الى المدينة)

"ادخلوا مصر ان شاء الله ءامنين"

هل العيش في المدن هو الاحسن؟ هذا هو التساؤل الذي سنبحث فيه في هذا المقال.

طغيان المادية و صعوبة العيش في المدن و لوازمها أدى الى ظهور نظريات تسعى الى اثبات أن العيش في الغابات او ما يسمى "الطبيعة" خير من العيش في ظل المدنية. فبدأنا نرى أناس يلومون المدنية على كل سوء يصيبهم, و يلومون وجود الحكومات على كل قيد يفرض عليهم, و يلومون أنظمة العمل المحددة على كل جوع أو نقص أو جهد يمسهم. و لكون الناس عامة ما ينزعون الى الحلول المريحة البسيطة فان النظرية التي يقدمها أصحاب هذه النزعات هي: العودة الى العيش في الطبيعة. و اني لأعلم عن خبرة هذه النظرية من كثر ما سمعتها من أنصارها. و لكوني لا أحب الاجابات المتسرعة الانفعالية و أرى أن مسائل المعرفة يجب أن تؤخذ بهدوء و لا يقرر فيها بشئ الا بعد بحث و موازنة فاني غالبا ما أقول لهم عندما يطلبون مني رأيا في الأمر: سأبحث و أكتب ثم أقول لكم. و اني أشعر ان قلبي قد استعد لكتابة في هذا الأمر بالرغم من أن هذه المسألة كانت تدور في خلدي منذ ما يزيد على الأربعة سنوات. و لكل أمة أجل. فتعالوا ننظر...

1 لماذا خرجنا من العيش في الطبيعة أصلا؟ لا شك أن العيش في الطبيعة كان هو بداية تطور الناس في الحياة. اذ ما المدن الا من صناعة أهل الطبيعة (و سأستعمل هذه الكلمة للدلالة على هذا النوع من العيش لكونه المتعارف عليه). فلا بد أنه يوجد أسباب جعلت الأقدمين يسعون الى خلق المدن و اقامة النظم. و اذا جربنا أن نعيش في الطبيعة سنرى هذه الأسباب و سنختبرها في ظل بضعة أسابيع أو أشهر على الأكثر. و هذه الأسباب هي التي أشارت اليها الاية القائلة " أطعمهم من جوع و أمنهم من خوف".

الخوف من هجوم الوحوش , الخوف من انهدام البيوت بسبب الكوارث الطبيعية, الخوف من اذى الطقس, الخوف من هجوم القبائل و الافراد و العصابات, الخوف من زوال الطعام و انتشار القحط. و كذلك الجوع الذي هو بسبب انعدام الطعام أو الغنيمة في بعض الايام, و الجوع بسبب تكاثر البطون التي يجب اشباعها و قلة المؤونة.

و لكن لماذا سعينا أصلا لازالة الخوف و الجوع أو احتمال ظهورهما ؟ فالحيوانات الأخرى أيضا تخاف و أيضا تجوع, و لكننا لا نرى كل الحيوانات قد أقامت مدن و حضارات. لعل شئ من المدنية يمكن أن يستشف في أسلوب عيش حيوانات مثل النحل و النمل, فيوجد نوع من الحياة الاجتماعية فيهم. و لكن مع ذلك لا يوجد أحد غيرنا سعى الى خلق مدن و توسيعها و السعي الدؤوب الى ازالة الخوف و الجوع, بالرغم من وجود انحرافات همجية هنا و هناك في هذا السعي. و بالرغم من اننا نعيش في المدن الان الا أنه لا يزال يوجد عدد لا بأس به من الذين تدل أعمالهم و أفكارهم على أنهم لا يزالوا انصارا للحياة الأولى. في الطور الأول كنا أحرارا الى أبعد ما تسمح به قوتنا, فالذي يستطيع ان يقتل سيقتل ان شاء, و الذي يريد أن يسرق سيسرق ان شاء, و الذي يريد أن يزني بمحارمه سيزني ان شاء. فلا سلطة الا سلطة القوة. و لكن في المدنية فان هذه السلطة تضعف شيئا فشيئا. مع ان اثار البداوة لا تزال ظاهرة في كثير من الأحيان.

فنستطيع أن نلحظ وجود نزعتين في الناس: نزعة بدوية, و نزعة مدنية. البدوية لا تفهم سبب وجود المدنية, و ان فهمت فانها لا ترغب فيها, و ان رغبت فيها فانها مع ذلك ترغب في أخذ ورود المدنية بدون شوكها. يريدون الحرية المطلقة داخل المدينة, و لا يستطيعون أن يفهموا أن الحياة البدوية الطبيعية كانت لنا فيها الحرية المطلقة قدر الامكان. و النزعة المدنية ترغب في ازالة الخوف و الجوع لسبب ما سنبحث عنه لاحقا. و بين هاتين النزعتين تتنازع أهواء الناس و أمزجتهم. و أكثرهم مذبذبين لا الى هؤلاء و لا الى هؤلاء.

لماذا يريد أهل النزعة المدنية أن يزيلوا الخوف و الجوع (و هما كلمتين تشملان نواقص الجسم باجمال) ؟ و لماذا يريد أهل النزعة البدوية ان يرجعوا الى ذلك الأسلوب الصعب في المعيشة و الذي يقتضي وجود الخوف و الجوع-حتى و ان ادعوا أنهم ضد الخوف و الجوع؟

أما عن تفسير النزعة المدنية فيظهر أن الارتقاء بالحياة القلبية (الروحية و العقلية) هو الدافع الأكبر لذلك. فالذي يريد أن يرتاح جسمه انما يريد ان يرقي قلبه. "و اذا فرغت فانصب و الى ربك فارغب" . فالفراغ و الراحة الجسمانية هي التي تسمح للعقل بأن يعمل و للقلب بأن يسعى حيث يشاء. و في ظل همّ الخوف و الجوع فان العقل لا يستطيع ان يعمل بكل قوته, و أيضا فان توفير وسائل العلم متعذر كثيرا أيضا. ففي ظل غياب أدوات التواصل الاجتماعي و الدولي فان العلم سيبقى مكنوزا عند أصحابه. و كلما استقرت الحياة الجسمانية كان ذلك أدعى لظهور الحياة العقلية و الروحية. و من هنا نرى أن أهل المدنية أقرب الى السلام من البدو الأقرب الى الوحشية. و

العبرة للعموم. و ان مجرد وجود التوتر بسبب الخوف و الجوع, مع اضافة الجهل و الخرافات, فان خلق بشر متوحش هو امر بديهي و متوقع.

و أما عن تفسير النزعة البدوية فيظهر أنهم يكرهون قلوبهم. فهم لا يريدون أن يتفرغوا الى النظر في نفوسهم و لذلك يستعذبون عذاب الحياة البدوية الطبيعية. أي شئ يشغلهم عن نفوسهم و التفرغ للتامل و الدراسة هو أمر جيد لهؤلاء. و لا يخفى على أولي البصائر أن تعاطي المخدرات هو نزعة بدوية و لو تعاطاه رئيس المدينة. فانه وسيلة الى الانشغال عن النفس و العلم عن طريق الهلوسة و اصطناع الكذب و الجنون حتى لا يؤاخذه الناس و حتى يخدع نفسه بأن نفسه خالية من الأمور التي يكرهها هو. فقد يكون ما يهرب منه هو رغبات اثمة (كرغبة في زنا المحارم أو قتل الأب او الأم أو الأخوان) , و قد يكون انتشار أفكار كافرة مبغوضة اجتماعيا, و قد يكون بسبب ذكرى مؤلمة و مذلة (كأن يكون الشخص قد تم استغلاله جنسيا , او رأى مشهدا مؤلما لأحد أحبابه و ما شابه من ذكريات صادمة مؤلمة لا تزول اذ الوقائع لا تزول). و الأغلب هو الأول. او كلاهما. فكره الراحة الجسمانية انما هو من وسائل الانشغال عن النفس الممقوتة. و كره العلم أيضا من وسائل ذلك. و لذلك نرى أن الأعراب هم أشد كفرا و نفاقا و أجدر أن لا يعلموا شؤون الفكر المستنير. و يا كثر الاعراب في سكان المدن!

و هذا يرجعنا الى تساؤلنا الأول عن سر كوننا سعينا الى الخروج من العيش في الطبيعة البدوية و العيش في ظل المدن بالرغم من التخلي عن و التضحية بجزء من حريتنا. فسر ذلك هو ما عبر عنه القرءان بقوله "و نفخت فيه من روحي". و الحياة الالهية و السماوية العقلية لا تعيش على الظاهر و لكن على الباطن. فلا يهم أين هو جسمك, المهم أين هو قلبك. و هذه هي الثورة الالهية الانسانية الحقيقية, و لا ثورة الا هي أو فرع منها. فاذا نظرنا في نوع الرغبات الجسمانية التي اضطررنا , على الأقل مبدئيا, الى التضحية بها فسنرى أنها رغبات جسمانية غير هادفة بذاتها الا الى تفريغ طاقة نفسية بكمية كبيرة دفعة واحدة, مثل زنا المحارم او القتل, او اكل لحوم البشر او اتباع الهوى المحض بغض النظر عن اثاره ان استطعنا ان نفلت من العقاب. و كل هذه الطاقة تحولت الى الحياة الفكرية و الروحية فظهرت التطورات العلمية الميسرة للمعيشة الجسمانية, و ظهرت الأشعار و الكتب, و حمل الانسان الكتاب بدل أن يحمل السلاح. و أصبح الكلام هو وسيلة القتال بدل السهام . و نشأ الفن و تطور بطريقة كبيرة لم يكن ليتطور فيها كذلك في ظل الحياة البدوية.

نعم كان يوجد و لا يزال يوجد اثر لهذه النزعات الانسانية في البدو و سكان الطبيعة المجردة. و هذا أمر معروف. فالفرق بين البدو و المدنية هو أصلا فرق في الدرجة. فدرجة الانسانية أعلى في المدن من البدو, و امكانية تطورها أعلى أيضا.

الحرب بين البدو و المدن تمكن في هذا السؤال: هل من الأحسن أن نسعى الى خلق أكبر مقدار من الراحة و التفرغ الجسماني ام لا؟ ان كانت الاجابة هي نعم, فاذن نحتاج الى الخروج من الطبيعة الى المدن. و ان كانت الاجابة لا, فالبقاء في الطبيعة في الكهوف و الوديان و التحاف السماء هو أمر لا باس به.

و الاجابة على هذا السؤال تعتمد بدورها على الاجابة على سؤال أخر و هو : لماذا نعيش أصلا؟ الحياة في نهاية التحليل هي انفاق للطاقة. فكل يوم نتنفس فيه تتكون فينا طاقة نفسية الى حد ما. و يجب أن ننفقها, طوعا او كرها, في أمر مولد أو في رحم عقيم. هذه الطاقة ستنفق على أية حال من الأحوال, سواء اخترت طريقة انفاقها بعلم أو بغير وعي. فاذا اعتبرنا الحياة-و هو الرأي المعمول به غالبا- هي مجرد شئ صرنا فيه و يجب أن ننفق هذه الطاقة ليل نهار, نعمل لنعيش و نعيش لنعمل , و نتسلى هنا و هناك, و ان حالفنا الحظ قد نقع في حب انسان الى أجل معلوم او غير معلوم. فان هذا النوع من الحياة الغير واعية لافرق في ممارسته في ظل الطبيعة أو المدينة. بل لعله في ظل الطبيعة أحسن, اذ الخوف و الجوع يمتصان الطاقة النفسية بقوة, و الكآبة من بعد ذلك ظهير جيد لهذا الامتصاص. و سيتخلص الانسان من عذاب الحياة في فترة قصيرة نسبيا على الأغلب.

و قد يقال أن كل طرق الحياة متساوية, اذ انما هي اراء و اذواق شخصية. من زاوية ,نعم هذا الكلام صحيح. اذ في نهاية المطاف كل انسان سيفعل ما يشاء. و لكن هذا لا يعني أنه لا يوجد نظرية أقوى من أخرى. فاذا اعتبرنا الطاقة مثل الطعام, فاننا اذا تساءلنا عن أفضل وسيلة لاستهلاك الطعام فان النظرية التي تقول "علينا ان نأكله" خير من النظرية التي تقول "علينا أن نلقيه في المزابل"! و كذلك اذا اعتبرنا أن الطاقة مثل الماء فان انفاق الماء في "الشرب و النظافة و الزراعة" خير من "صبه على الحجارة". فأحسن نظرية في الحياة هي أحسن نظرية في انفاق الطاقة.

مما نلاحظ على حقيقة أن الحياة انفاق للطاقة هو أن الطاقة يمكن ان تنفق بوعي أو بغير وعي, و يمكن أن تنفق على أمر مولد أو أمر عقيم. فمثلا مبسطا على الانفاق بوعي هو "الدراسة" , و بغير وعي "الأحلام", و أمر مولد

"التأمل" و عقيم " الزينة التفاخرية باحد الاعتبارات". و حيث ان الموت هو توقف فيض الطاقة, و الموت ات عاجلا أم اجلا, فان هذا يدلنا على أن للحياة غاية مبنية على استعمال الطاقة في مواضع معينة دون بعض. فما هي هذه المواضع و لماذا ؟

لا يوجد غير انفاق الطاقة في أمور جسمانية أو أمور قلبية. و من هذان تتخلق النفس يوما بعد يوم. فكل ما له علاقة بتنمية الجسم و المظاهر الجسمانية هو موضع, كل ما له علاقة بتنمية العلم و الحالات الروحية هو موضع اخر. و هذا التقسيم مبسط جامع, و له تفصيل ليس هنا محله. اذ انما نريد الصورة العامة هنا.

للابقاء على الجسم صحيحا سليما يجب أن ننفق عليه. و هذا الحد من الانفاق هو دائما خير. و لكن الجسم سيؤول الى زوال سواء أنفقنا عليه كثيرا ام قليلا. و هو آيل الى انحدار في كل يوم يعيش فيه. "و من نعمره ننكسه في الخلق أفلا يعقلون". فالانفاق على الجسم يجب أن لا يجاوز حد الراحة و الصحة فقط. اذ كل ما عدا ذلك هو من الاسراف اذ انه سيزول و لن يكون في منفعة الجسم. فمثلا, بناء القصور و بناء الأجسام بطريقة جنونية و تعاطي المخدرات كل هذا اسراف في الانفاق لا ينفع الجسم فعلا و لكنه وسيلة الى تحقيق أمور نفسية مثل الكبرياء. فهو توسل الى تحقيق الكبرياء النفسي عن طريق الجسم و التفاخر على الاخرين الأقل منا في هذا الشأن. و لتكون الطاقة مولدة و راشدة يجب أن تنفق في امر يزداد نموه و يترقى كلما وضعت فيه طاقة أكثر. و ليس هذا الا للقلب و العقل. فكلما ازداد طلب الانسان للعلم و الترقي الروحي كلما ازداد نمو قلبه, و على عكس الجسم فان القلب كلما تقدم في العمر ارتفع ان عاش بهذا الأسلوب. فالحياة التي محورها الجسم و أمورالظاهر هي كالانحدار في وادي, و لكن الحياة التي محورها القلب و امور الباطن هي كالصعود على جبل. يوجد مقدار معين من الطاقة لابد و أن ينفقه الانسان على جسمه و قلبه, و هذا القدر البسيط هو عامل مشترك بين كل الناس. فكل أحد يجب أن يعتني بجسمه الى حد الابقاء عليه حيا, هذا ان اختار العيش بدل الانتحار بالطبع, و كل أحد سيكون له مقدار معين من المعرفة و الشعور و الأخلاق ليتمكن من العيش هنا. فهذا المقدار لا خلاف عليه و ليس هو محل العبرة. انما العبرة هي في بقية الطاقة, و ما اكثرها. قد نقول أن 70% من الطاقة النفسية هو الذي يحدد موقعك من الحياة, اي أين تنفق هذا المقدار. هل في أمور الجسم أو في القلب أو بينهما. و كلما تركز في المظاهر الدنيوية كنت من المسرفين المضيعين للحياة, و كلما كانت في العلم و الباطن الروحي كنت من النبيين المعظمين للحياة و العارفين بغايتها.

كلما جربنا و درسنا الفرق بين الحياة الدنيوية و الروحية يظهر أن الدنيوية هي السفلى و الروحية هي العليا. و لذلك سنجعل اختيار الحياة الروحية هو غاية الحياة و سنبني عليه بحثنا من الان فصاعدا.

و الان, أين يمكن أن نحقق أعلى قدر من الوعي و الروحانية: في ظل البداوة او ظل المدنية؟ لاشك أنها في ظل المدنية. اذ الروحانية أمر باطني و عقلي, و لهذا نحتاج الى وجود وفرة من الطعام و اللباس و الأمن و الطب و المسكن المريح و وسائل البحث و الكتب و الاجتماعات و السفر بسهولة الى مواضع شتى على الأرض و غير ذلك من امور لا يمكن أن تتوفر الا في ظل المدنية أو على أقل تقدير فان توفرها في ظل المدنية أحسن.

و هذا لا يعني عدم جواز نقد المدنية. بل على العكس تماما, يجب ان ننقد المدنية بمنظار الروحانية و ليس بمنظار النزعة البدوية. فمن لا يريد المدينة فليخرج, لا أدري الى أين صراحة! و لكن يجب أن يكون معيارنا في نقد المدنية هو توفير الراحة الجسمانية الى أبعد الحدود لكل الناس, و الاذن التام المطلق لكل رأي علمي أو فكري أو روحاني بأن ينتشر بدون أدنى عائق من سلطة أو تنظيم. هذا هو ميزان العدل في الحكم على المدن, و كل ما سواه اضاعة للطاقة و للوقت. لا يهم كيف سيتوفر هذين الأمرين, و لا يهم بماذا سنضحي في سبيل ذلك. و انما أفسد المدنية اختلال هذا الميزان من قبل الحكومات و الطغاة التافهين الذين يملكون معيارا بدويا في سياستهم. و بدون فهم الناس و الجماهير لهذه المسألة (مسألة البدو و المدينة) فان جهد الاصلاح سيذهب سدى. و عندها لا يلوم الناس الا أنفسهم اذا انعزل العلماء و انتشر الفساد. و صدقوني, فان العلماء سيجدون وسيلة بل وسائل للعيش بسلام و راحة و متعة و فرحة, و سيقولون بلسان الحال للناس "لا تحبون الناصحين"! فان لم يسعى الناس للوعي, فان الواعي لن يبالي بهم. حل صعوبات المدينة ليس بالهروب الى الطبيعة, و لكنه كما قال الله للقلب الموسوي الروحاني "اذهب الى فرعون انه طغى". و عندما يفهم الناس و يتخلوا عن حيوة اللعب و اللهو و الزينة الظاهرية التفاخرية و التكاثر في الأمول و الأولد لاشباع شئ من كبرياءهم النفسي بهذه الطرق الرخيصة, و عندما يختاروا حياة العلم و العرفان فان الله سيخسف بقارون و بداره الأرض, و ما هامان عن غرق فرعون و خسف قارون ببعيد.

بدون العرفان فان المدنية تصبح أقبح من العيش في الطبيعة. اذ ان فقدان الروح هو خسارة فوق فقدان الحرية الجسمانية و قيودها. العرفان هو روح المدنية. بدونه انما هي جسم ميت و جيفة حمار. فلا عجب من تقزز الناس منها و هروبهم الى الثورات و المخدرات و العقد النفسية و الأديان الخرافية الوهمية و الكسل في التنمية.

العرفان يخلق العدل في الانسان. فلن يطلب العارف أكثر من الراحة و الصحة الطبيعية لجسمه بالقدر اللازم و المعقول. و مقدار هائل من الطاقة سينضخ في رغبة الناس في المعرفة و العلم, و سنشهد تفجير في بحار العلم و

الوعي لم نشهد مثلها من قبل. ان مقدار التكنولوجيا المتوفر اليوم يمكن ان يخلق راحة جسمانية لعل الناس لم تحلم بها الا في الجنة الخيالية. و لكن لا تزال النزعات البدوية التدميرية المظاهرية تقمع غريزة العرفان المسجونة في قلب الانسان. و سكوت و خمود عامة الناس عن التوجه الى ذات الله و استكانتهم للأعراب المتحكمين في شؤون أجسامهم, و أفكارهم أحيانا, هو من أكبر العون الذي يقدمونه لهذا الشيطان الطاغي البليد.

لو كانت الحياة في البدو خير من الحياة في المدينة لرجع يوسف الى أبيه بدل أن يأتي بأبيه و اخوته و أهلهم أجمعين الى المدينة. "و قد أحسن بي اذ أخرجني من السجن و جاء بكم من البدو" البدو حبس لاطلاق الروح كما ان السجن حبس للحرية الكاملة للجسم.

نحن اليوم في ظل بداوة في ثوب مدنية على الأغلب, فلا يزال معيار التفاضل هو المظاهر و لا تزال الأصنام الدنيوية الخمسة هي الحاكمة لشؤون المجتمعات. و نحتاج الى نشر العرفان حتى نصبح مدينة قلبا و قالبا. و عندما يتحد أكثرية الناس على هذا الأمر الجامع فان الأمر سيتم, فكما أن وجود أكثرية مظلمة يعني نزول العذاب, فوجود أكثرية مستنيرة يعني خلق للجنة بقدر المستطاع, و ما أعظمها!

(المحرمات الكبرى, لماذا؟)

يوجد في هذا العالم في هذا الوقت ثلاثة محرمات, او كما يقال في علم التحليل النفسي "تابو" , و هم :النيك, الاله و الاناركية. و السبب الرئيسي وراء خلق هذه المحرمات هو :السيطرة على الشعب. هذا الاجمال, و لنفصّل قليلا بما يليق بهذا المدخل لدراسة هذه المحرمات الثلاثة.

(النيك) ان الغريزة الجنسية هي أكبر و أهم الغرائز على الاطلاق, و هي التعبير الاول و الاهم لجوهر الكبرياء النفسي. و لا يدانيها قوة الا شهوة المعرفة, و هذه اللاحقة من بدائل تلك السابقة, اذ الانسان يسعى للاتصال و الكبرياء الجسماني فاذا لم يستطع أن يشبع جوهره بهذا السعي الجسماني ذهب الى السعي العقلاني و الروحاني. و كلا الشهوتين, النيك و المعرفة, هما من وسائل تحقيق رغبة جوهر النفس, أي الكبرياء و توسيع الذات. فطاقة النيك طاقة عظيمة.

تصور لو أنك تعتقد , بسبب المجتمع, أنك اذا شعرت بالجوع فان هذا يعتبر منقصة. فهذا سيعني أن كل الناس ستشعر بالنقص و المذلة بدرجة أو بأخرى, و ذلك لأن كل جسم يشعر بالجوع , اي الجوع للطعام. و هذا طبيعي و فطري. هذا هو الذي جعل السلطة تسعى الى جعل النيك منقصة و الحديث عنه منقصة و مخجل. فان هذا سيعني أن الجماهير ستشعر بالنقص و المذلة على الدوام, لان التفكير و الرغبة في الأمور الجنسية هو أمر طبيعي مثل التفكير و الرغبة في الطعام و الهواء, هذا أقل ما يقر به الجميع, اذ قد ينازعنا البعض في مقدار القوة و الاهمية التي ننسبها الى الغريزة الجنسية و لكن القدر الذي يقر به الكل هو أنها تساوي شهوة الطعام, و كلنا يعلم و يشاهد قوة شهوة الطعام حتى انها تدفع الشخص الى الأكل من المزابل اذا لم يجد غير ذلك-و العياذ بالله.

ماذا تنتفع السلطة اذا شعر الشعب عامة بالنقص المستمر و الذل؟ انتفاع عظيم. بذلك يكسرون عزة الناس التي تدفعهم الى اصلاح المجتمع و الحكومة. تسمعون دائما أنه اذا رغب احد في اصلاح المجتمع و الحكومة أنه يواجه عادة بأقوال مثل "اذهب و اصلح نفسك اولا!" أو "من أنت حتى تصلح العالم؟!" و امثال ذلك من مقولات تدل على انكسار في كبرياء الناس, و الذي لا يمكن أن يكون نتج الا بسبب الشعور بالذل الناتج بدوره بسبب عدم امكانية تحقيق قيمة اجتماعية أو شخصية ما. من أهم وسائل الحكومة في الابقاء على قوتها و عزتها في قلوب الناس هي أن يكسروا و يذلوا قلوب هؤلاء الناس. و جعل شهوة النيك محاطة بالحرمة (بالرغم من أن رجال السلطة سواء كانوا سياسين أو دينين أو تجار هم في الغالب من أفجر الناس بحسب هذا المعيار!) يؤدي الى اشعار الناس بالذل. كما هو مشاهد و مختبر فعلا, و الكل يعرف ذلك, فكلامنا ليس تنظير و لكنه تذكير.

و من ناحية أخرى, فان الدين الذي يعتمد على جلب "الخلاص" للناس يعتمد أصلا على شعور الناس بالذنب و النقص و الذل. فكلما شعر الانسان أنه "خاطئ" فانه يكون أقرب الى قبول الدين في حياته و الاخلاص له و قبول عقائده و احكامه على عمى. و لذلك لا نتعجب عندما نرى المتدين يقبل بأفكار سخيفة و يقوم بأعمال أسخف, و اذا حاججناه ولى معرضا و لم يعقب, فان سبب قبوله للدين أصلا هو ليس سبب علمي أو موقف فكري (بالرغم مما يحاول البعض أن يخدع نفسه و يزعم أنه قبل الدين "عن قناعة فكرية"!) و لذلك فهو لا يبالي و لو جئته بألف حجة و برهان على بطلان أو ضعف فكرة ما, فانه لا يبالي كما لا يبالي الحمار بالذبابة الواقفة على وجهه. انه قبل الدين لأنه سبب "الخلاص" خلاصه من شعوره بالذنب , الناتج بسبب "الرغبات الشريرة" التي تحوم حول قلبه, الشياطين التي تحوم حول قلبه. فكلما حولنا الغرائز الطبيعية الى "ذنوب" فان اقبال الناس على الدين سيكون أكبر, و لذلك كلما وجدت مقدسات و محرمات و نواهي و عيب في مجتمع كلما كان اقباله على الدين اكثر, و كلما قلت هذه الأمور كلما ضعف سلطان الدين فيها. فالدين مثل مصاص الدماء الذي يعيش على جروح الناس, اي على شعورهم بالنقص و الذل الغير طبيعي.

و من ناحية التجار و اصحاب الاموال. فان الناس اذا اطلقوا العنان لغريزتهم الجنسية بدون أي تسلط خارجي عليها, فان هذا سيؤدي على الاقل الى ضررين, حسب ما يرى هؤلاء على الاقل: أولا, كثرة الانجاب. و في مجتمع محارب فان التكاثر في الاولاد يكون عمل حسن اذ من هؤلاء تتكون الجيوش الغازية في سبيل الله أو عشق الوطن. و لكن في الاحوال العادية المسالمة فان كثرة الاولاد تعني أن الاب العامل سيطالب بمال أكثر, و هذا يعني خسارة صاحب العمل لجزء من ماله بالاضافة الى احتمال قيام ثورة عمالية اذا لم يذعن رب العمل و يرفع الاجور. فعلى كلا الاحتمالين فان اطلاق الغريزة الجنسية مضر بالتجار و اصحاب الاموال المكنوزة. و ثانيا, ان صرف الطاقة النفسية في عمل جنسي مباشر يعني نقص كبير في الطاقة التي يمكن أن يستغلها رب العمل من العامل. و لذلك يشتهر في المجتمعات أن "زير النساء" أو الذي يمارس الجنس بكثرة عادة ما يتوقع منه أن يكون عاطلا عن العمل أو مقصرا فيه أو لا مباليا به. و أما الذي يكبت هذه الغريزة باستمرار فان مخزون طاقته, و الذي يحتاج الى تفريغ مستمر, يكون كبيرا. و هذا ما يرغب رب العمل في استغلاله لمصلحته.

فضرب حجاب التابو أو التحريم على النيك هو من أحسن وسائل نفع مثلث الطغيان الدائم, الاخوان الثلاثة: فرعون (السياسة) و هامان(الدين) و قارون (المال). و كثر الكلام عن المحرم يعرضه الى الزوال, أي أن تزول هيبته من قلوب الناس. و الأكبر من ذلك هو أن كثر الكلام عن المحرم عن طريق نقده و تحليله يعني أن ينكشف أمره و سبب

خلقه عاجلا أم اجلا, و هذا هو السبب الحقيقي الذي يمنع الكلام عن مثل هذه المواضيع علنا فضلا عن تحليلها و نقدها. نعم, اذا أردت أن تتحدث عن المحرمات الثلاثة بطريقة تقريرة, أي أنك توافق السلطة في ما تقوله فهذا عامة لا بأس به, و لكن عندما "تنقد" فهنا يجب أن توقف عند حدك من اجل "حفظ حياء المجتمع و أخلاقه الراقية" (شئ مضحك فعلا و يصلح للتندر عليه في المجالس) وعلى هذا تأسس التحريم. التحريم يعني عدم النقد. التحريم لا يعني عدم الكلام. الكلام جائز, اذ انما خلقوا التحريم و يبقون ناره المقدسة دائمة الاشتعال عن طريق الكلام و لكن بقدر. المشكلة عندهم هي أن تنقد المحرم و تشكك في حرمته. هنا تقوم قائمتهم و لا تقعد. الناقد ثائر. الباحث ثائر. المتسائل ثائر. المشكك ثائر. و في الواقع قد تجتمع هذه الصفات الأربعة في شخص واحد, و عندها يكون هذا الشخص هو ابليس ذاته- لعنه الله! يجوز لك أن تقرر أن تمدح و ان تزيد من قوة التحريم, نعم هذا كله جميل بل لعلهم يجعلوك شيخ الاسلام و مفتي الديار اذا احسنت. و لكن ان تنقد فهنا سيضطروا أن يلقوك في النار كما القي ابرهيم. و لا أظن أن نار فرعون ستتحول الى بردا و سلاما الا ان شاء الله, و الله على كل شيء قدير كما قيل.

(الاله) ان مسألة الاله تعتبر عامة أنها من المسائل الشائكة الصعبة العميقة. و هذا من عمل رجال التحريم. ان المسألة أبسط بكثير مما يتوقع. و هذا ليس من التبسيط المخل و لكنه ناتج من طول دراسة و غربلة الافكار و السعي الدائم الى الرؤية بوضوح. ان الاله الذي اتحدث عنه هو اله رجال السلطة السياسية, الذي خلقه لهم رجال السلطة الدينية , و الذي دعمه رجال السلطة المالية. هذا هو الاله الباطل الذي وضع حوله التحريم, و السبب هنا كما هو في سابقه: أن نقد هذه الفكرة سيؤدي عاجلا أم اجلا الى اظهار زيفها. و ترى أن أشد المجتمعات تعصبا للدين, اذا تحدث أحد عن الههم فان الناس تقبل و قد تخشع و تبكي. و هذا مسموح به بل مدعوا اليه. و لكن المصيبة عندما تنقد هذا الاله أو تشكك في وجوده أو تسخر من أوامره أو حتى ان تخضع أوامره للتحليل و ترى مقدار ما فيها فعلا من الحكمة و التناسق و المنفعة للناس (الناس الذين يفترض أن هذا الدين جاء لمصلحتهم و ليس لمصلحة الاله, على الاقل هذا ما يقوله الذين خلقوه أو الذين "يدعون اليه" كما يفضلوا أن يقال عنهم) .

الحكومات تفضل الدين لأنه الشرطة و الرقيب الدائم و المشرع "المحايد" المحبوب و المهاب عند أغلب الشعب. فالحكومة تسعى دائما الى الكشف عن الثائرين المحتملين. و بديهي انها لا تملك أن تراقب ما يفعله الناس في السر. و لذلك يحبون هذا الاله الموجود في كل مكان و المراقب لكل شيء. نعم يوجد قلة لن تبالي بهذا الزعم, ولكن الأكثرية ستبالي و ستخشى أن تدبر أمرا في السر ضد الحكومة, لأن الدين قد قال أن الخروج على الحكومة أو ازالتها هو عمل شيطاني سيئ (و لا ننسى أن أول ثائر على الحكومة الطغيانية هو ابليس الذي رفض أن يطيع أمرا لم يقتنع به شخصيا- و الطغيان يعني أن تجبر على الخضوع لأن الحاكم قال الأمر و ليس لاي اعتبار اخر " ما منعك

أن تسجد اذ أمرتك" و بهذا المنطق يجعلون كل ثائر ابليس اللعين- قبحه الله) .و من ناحية أخرى فان الحكومة التي يكون الاله الأعظم هو مشرع الأحكام فيها ستجد أولياء لها أكثر من حكومة يكون "البشر" هم الذين يضعون الأحكام بأهوائهم, و بالطبع ان عامة الناس لا يعرفون عن حقيقة الشريعة و الفقه شيئا يذكر, و يحسبون أن الشريعة من الله اليهم مباشرة و لا دخل للمصالح و الاهواء البشرية في الأمر, مساكين, و لكن هذا ما يفعله الجهل. فالاله هو شرطة حكومية لا تغيب. مثلث الطغيان وضع الاله على العرش ثم الاله وضع مثلث الطغيان على العرش. و الاله هو الذي يشرع القوانين مباشرة أو غير مباشرة. فمن بعد ذلك يجرؤ على مخالفة الحكومة.

و أما مصلحة الدين من وراء فكرة الاله فلا أظن أنها تحتاج الى تفصيل كثير. الاله هو رأس مال الدين, و بدونه لا مكان لهم في مجلس الملأ الأعلى المتسلط على الشعب. يقال أن الها معينا بالذات هو الذي خلق الناس, هذا لغو لا برهان عليه و الشهادة عليه مرفوضة بكل الموازين, بل حتى اذا نظرنا في القرءان فانه يقول "ما أشهدتهم خلق السموت و الارض و لا خلق أنفسهم" فكيف تشهد على شيء أنت لم تشهده! هذا أبسط ما يقال في الأمر. اننا لم نرى يوما الها خلق الناس, ولكننا نرى الناس تخلق الالهة يوميا. و المصنع الذي يخلق فيه الناس الهتهم هو كتب العقائد و الاوراد و الطقوس. انظر في كتب العقائد ترى الاله و هو يتطور من نطفة الى علقة الى مضغة حتى يستوى على العرش. و بالطبع لا يكفي أن يعرفوا الناس "بوجود" الاله هذا, لا , الخطوة الثانية هي أن هذا الاله اختار أحد كهنتهم أو أنبيائهم ليبلغ قوانين يجب أن يخضع لها الناس و يسلموا تسليما مهما خالف عقولهم أو منفعتهم في حياتهم (و بالطبع ان الشرائع قد تخالف مصلحة الشعب و لكنها لا تخالف مصلحة السلطة أبدا و اذا فعلت لسبب ما فان رجال الدين يملكون من القدرة و الجدل و الكتب الكثيرة التي تمكنهم من جعل أي شيء حلال او حراما كما يشاؤون هم و اخوانهم) .فالاله كوجود هو عملهم الاول, و الاله كمشرع هو عملهم الثاني و الأهم. ولذلك اذا قلت لهم :اني اؤمن بوجود الاله و لكني لا أقبل بهذا الدين الذي تزعمون انه أنزله , فانهم يعتبرونك كافرا. ان الاله له "الخلق و الأمر"

نقد الدين يعتبر جريمة فورية و لو انتهى بك الأمر الى تقرير صحته. فهذا بحد ذاته يخيفهم. اذ أنت نقدت الدين فوصلت لسبب ما الى أنه حق, و لكن اذا سمحوا لهذا النقد بأن يستمر فانهم يعلمون أن الحقيقة ستظهر. فكثرة التساؤل تنخل الفكرة نخلا حتى يظهر الحق و يبطل ما يعمل الساحر و حزبه. و لذلك ضربوا على الدين حجاب التحريم. فالدين مثل زوجة النبي التي لا يجوز أن تكلمها الا من وراء حجاب, و حجاب الدين هو أقوال الاحبار و الرهبان أو الفقهاء و الشيوخ. فالكتاب وسيط بينك و بين الله, و النبي وسيط بينك و بين الكتاب, و الفقهاء وسطاء بينك و بين النبي. ظلمات بعضها فوق بعض, اذا اخرجت عقلك لم تكد ترى ما يقوله لك وسط هذا الركام الأسود من السحر الأسود. يقولون أن دينهم هو الأقوى و الاحسن و الأمثل, حسنا, اسمحوا لنا بنقده علنا بدون أي تهديد على سلامة اجسامنا ان كنتم صادقين. و لن يفعلوه أبدا. و اذا فعلوه فانها نهايتهم. السماح بالنقد الحر من

قبل رجال الدين هو انتحار رسمي للدين, أو سعي هؤلاء لقتل الدين. الحمار ابن الحمار هو رجل الدين الذي يدعوا الناس الى حرية التعبير. هو مثل السارق الذي يدعوا رجال الشرطة الى تفتيش خزائنه, لاشك انه حمار ابن حمار.

و أما اصحاب الاموال و الكنوز. فان الاله و دينه حبيب هؤلاء. اذ ان الدين يستنفذ جزء كبير من طاقة الناس الزائدة, و يجعل لهم أمل في جنة بعد الموت, الجنة و النعيم الذي حرموا منه بسبب أناس مثل هؤلاء المترفين. و الدين كذلك يوجب على الناس أن لا يتعرضوا الى مال المترف و كنوزه. فالمترف لا يريد أن يشارك المجتمع ككل. هو يريد كل شيء لنفسه و أهله الاقرباء منه و أما باقي الناس فالى الجحيم. و الناس اذا لم تجد من وسيلة الى المتعة و تفريغ الطاقة الا في هذا العالم "الجسماني" و اذا لم تعتقد الا بهذه الحياة فان هذا سيعني أن الناس ستسعى الى جعل هذه الحياة نعيما لها بأقصا قدر ممكن. و هذا سيعرض الأثرياء أصحاب الكنوز الى مشاكل كثيرة. فما الحل يا ترى؟ نعم, الحل أن نخلق لهم الها عظيما ينشغلون بعبادته و تسبيحه , و نخلق لهم حياة أخرى أعظم من هذه بكثير من كل النواحي. فالعامل يعمل عند ربه البشري في النهار و يتعذب, و يعمل عند ربه "السماوي" في الليل و يتمتع و يأمل أن يتغير حاله. و ان عدم وجود الاله (و الذي يحرم الانتحار بالمناسبة) و عدم وجود أمل بنعيم مقيم هذان سيؤديان على الأغلب الأعم الى أحد أمرين: ثورة شاملة على الطغيان, أو الانتحار. و حيث ان التجار يرغبون في عمال ليعملوا لهم و يخدموهم مهما كانت ظروف عملهم و حياتهم سيئة فهم ضد الانتحار. و حيث انهم ضد الثورة على الطغيان و العذاب المعيشي فانهم يحتاجون الاله و الاخرة, و القوة السياسية كذلك. فمثلث الطغيان مثلث متكامل لا غنى لأحدهم عن الاخر. هذا يعطي قوة السلاح, و هذا يعطي قوة المال, و هذا يعطي قوة الأمل. و الطقوس الدينية ممتعة لمن يعتقد بها, و غريبة. فهي من وسائل التسلية التي لا تكلف رجال السلطة مالا يذكر, بل انها تكلف الناس مالا في الكثير من الاحيان. فالدين صنع أيضا كوسيلة لتسلية الشعب بطريقة لا تضر السلطة , تنفع الشعب عن طريق تسليته و تفريغ جزء من طاقته و رغباته, و غرائزه بطريقة رمزية لاشعورية.

(الاناركية) اثنين في العالم لا يعرفهم الناس حق المعرفة, و قد سعت كل السلطات بكل قواها لكي تخفيهم من الوجود أو تشوههم بصورة ما بعدها تشويه: ابليس و الاناركية. و كلاهما مكروه لنفس السبب: لأنهما ضد الطغيان الحكومي و مع تناغم الوجود. الاناركية نظرية حقيقية لا يدانيها في القوة شيء. و لا يمكن تصور أحسن منها أصلا. و لا يمكن نقدها الا عن طريق قتل أنصارها. لا نريد أن نشرح ما هي بتفصيل فلهذا مقالات أخرى, و لكن باختصار هي أن لا يوجد أي طغيان خارجي (حكومي) اجباري على الناس. أو داخلي نفسي أيضا. هي أن يعمل الانسان بحسب فطرته و فهمه و قناعته الشخصية. و هي التعاون الحر بين افراد المجتمع لمنفعتهم هم. فالاناركية فطرة و تعاون و تناغم طبيعي.

ان الاناركية هي محاربة علنية مباشرة لمثلث الطغيان. الحديث عن النيك, و نقد الاله يمكن أن يتساهل فيها اذا لم يجدوا بدا من ذلك في الحالات القصوى. و لكن السماح للأناركية بالانتشار الحر, و اقامة الاجتماعات, و غير ذلك من وسائل النشر و الاعلام, فهذا ما لا يمكن السكوت عنه في الغالب الأعم. بل في بلداننا لا يمكن السكوت عنه بالمرة. و أرجو أن أكون مخطئا. كسر تابو النيك و الاله هو محاربة غير مباشرة لمثلث الطغيان. أما الاناركية فهي ضرب الرقاب. هي ذكر مباشر لكل أسرار المثلث, و ذكر البدائل و الحجج. هي نقد لكل الأسباب او "البراهين" التي يدعي المثلث أنه قائم عليها. و هذا طعن مباشر واعي للمثلث. و هذا يكفي لجعلهم يضربون عليها ليس فقط بحجاب التحريم, بل بحجاب عدم الذكر أصلا. اذهب و اسأل ألف رجل عن الجنس و الاله فسيتكلم و يتفلسف, اذهب و اسألهم عن الاناركية فقد لا تجد عشرة يفقهون عنها شيئا, بل اذا وجدت عشرة من ألف فان هذا مجتمع واعد فيه خير!

هذا كما قلت مجرد مدخل الى هذه المسائل الكبرى في هذه الحياة. و أحسن الناس من فهمها و عمل بمقتضى هذا الفهم الحقيقي. و لا يرجى خير الا عن طريق كسر هذا المثلث التحريمي, و عندها و عندها فقط يمكن أن نرى ضعف و زوال المثلث الطغياني , و ولادة المجتمع المحترم الانساني .و سلام على العلماء.

(تقييم العلاقة بين الكبت و الحضارة)

1 يقال أن كبت الغرائز النفسية الأصلية ضرورة لا مفر منها اذا أردنا أن نحيا في ظل حضارة و مدنية. و فرويد مؤسس التحليل النفسي هو من أبرز المنظرين لهذا القول, بالرغم من أن الناس لطالما أخذوا بهذا القول في واقعهم العملي حتى قبل ظهور التحليل النفسي بل ان فرويد لم يقم بأكثر من ارساء القواعد العلمية النفسية لهذا القول.

و قبل أن نبدأ في تقييم العلاقة بين الكبت و الحضارة يجب أن نحدد ما هي الغرائز النفسية المقصودة, و ما هي الحضارة التي نحتاج أن نمارس الكبت على أنفسنا و على الاخرين من أجل أن نحيا في ظلها, ثم ما هو هذا الكبت و ما هي أحسن الطرق لممارسته بأقل الأضرار الممكنة و بأكبر المنافع للنفس و الناس. بدون تحديد هذه الأمور لا سبيل الى وضع تقييم حقيقي نافع و عميق. فتعالوا ننظر..

(الغرائز)

فرويد توصل الى ان الغرائزالاساسية ثلاثة: زنا المحارم, أكل لحوم البشر و القتل. و توصل الى ان أكبر طاقة في النفس هي الطاقة الجنسية و يسميها "الليبيدو" و هي كلمة تعني الشهوة و المتعة و اللذة و غير ذلك من الكلمات التي تدور حول الجوع الجنسي و تلبيته و الشامل لكل شئ. و يوجد فرق بين الجنس للمتعة و الجنس للتناسل, و أصل الرغبة الجنسية غير محكوم بالرغبة في التناسل و لكن بالمتعة لذاتها. و بالطبع لا أريد أن أقع في الخطأ الذي يكثر الباحثين من الوقوع فيه و هو أن يحاولوا أن يشرحوا أفكار باحث اخر بطريقة مقتضبة أو حتى لو كانت مسهبة فانه لا يوجد أحد يمكن أن يشرح فكرته مثلما يفعل مستنتج الفكرة نفسه. فالذي يريد أن يفهم أفكار فرويد فليرجع الى كتب فرويد. و انما نذكر الأمر هنا بطريقة مجملة من باب التذكير و وضع الخطوط العريضة, واني أفترض في من سيقرأ هذا المقال و ينتفع به أن يكون من المهتمين بمثل هذه المباحث و عند اطلاع جيد على نظرية الكبت و الحضارة, خاصة كما يشرحها فرويد و غيره من أنصار التحليل النفسي. نعم اني لا أفترض أن القارئ عبقري و لكن في نفس الوقت لا أفترض أنه غبي.

و اما الغرائز عندي في نظرتي التي سميتها التأويل النفسي فاني أرى أنها تنبع من جوهر النفس الذي هو الكبرياء و الراحة للعقل و الجسم. و تختلف صور هذا الجوهر (أي الكبرياء و الراحة) بعوامل عديدة منها تاريخ الشخص نفسه, و منها حالته العقلية و الجسمانية و بصورة عامة تصوره للكمال. و قد شرحنا هذه الأمور بالتفصيل في كتابنا "هيكل النفس" .

و حتى لا نجعل هذا المقال جدال حول علم النفس بحيث لا ينتفع به الا المتخصصين فاني سأعتبر نظرية فرويد في الغرائز صحيحة و سأناقش الموضوع و أضع التقييم بناء عليها.

فالآن عندنا ثلاث غرائز و رغبة جنسية أو ليبيدو نشط جدا يجب أن يجد له منفذ سليم و الا أصيب الانسان بعصاب و مرض نفسي سينعكس سلبا في حياته كلها. و نستطيع أن نضم غريزة أكل لحوم البشر مع القتل اذ يجمعهما في الأصل عمل واحد هو قتل الانسان, و أما ماذا نفعل به بعد قتله فلن يقدم و لن يؤخر في الواقع شيء. فالقتل ممنوع في المجتمع لانه يؤدي الى فنائه بدرجة أو بأخرى. فهذه غريزة أصلية و هي " القتل" يجب أن نتعامل معها بطريقة ما بحيث لا تدمر الحياة الاجتماعية. و الغريزة الثانية و هي الكبرى أي الجنس ممثل في زنا المحارم, فهذه الغريزة لا تبالي بالقيود اللاحقة التي وضعت على الموضوع الجنسي, فالأصل أن الانسان لا يبالي مع من يمارس الجنس, و حيث انه, في العادة, أن يكون المحارم هم أول من يتعلق بهم الطفل و أكثر من يحبونه و يقربونه فانهم يكونون أول موضوع للتعلق الجنسي في حياته, و حيث انه سيمنع من تلبية هذه الرغبات و سيكبتها فانه سيدخل في الاطوار النفسية المعقدة التي يمر فيها كل من يقع في مثل هذا. و اللبيدو بصورة عامة سيكون في احدى ثلاث حالات: اما أن يجد منفذا سليما فيحيى الانسان حياة نفسية سليمة الى حد بعيد من هذه الناحية, و اما أن لا يجد منفذا سليما فاما أن ينحرف و يكون الاعراض المرضية, و اما أن "يتسامى" بان ينفق طاقته في أعمال أخرى نافعة مثل الدراسة أو الرياضة أو الفن و ماشابه. بالرغم من أن فرويد يقول أنه لا يمكن أن تتسامى "كل" طاقة اللبيدو, بل يبقى جزء يجب أن يجد له منفذا من ممارسة جنسية من نوع ما او أنه سيرتد الى عصاب نفسي من نوع ما. و اني شخصيا أوافق على هذه النظرة الى حد كبير بل يكاد يكون مطلقا و تفصيل ذلك ليس هنا محله.

فاذن نحن أما غريزتين أو رغبتين: الرغبة في تفريغ الطاقة الجنسية بدون أي قيد أيا كان, و الرغبة في قتل الاخرين.و للاختصار نقول أن هاتين الرغبتين هما "اللبيدو الحر" و "القتل" .مع تذكر اننا ضممنا أكل لحوم البشر مع القتل.

(الحضارة)

عكس الحضارة هي البداوة و الحياة في الغابات. فالحضارة و المدنية كلمات مختلفة تصف شيء واحد من زوايا مختلفة. فأصل الحضارة هو الحياة في مدينة و مع جماعة. ففيها معنى الاستقرار في محل واحد. و عادة ما نقرن الحضارة بالعلم و الفن و القانون و الأدب.

و من هنا نرى لماذا ربط فرويد الكبت بالحضارة. فلأن الانسان عندما يكبت غرائزه فان عدد من الناس, "قلة" كما يقر فرويد وغيره, سيمارسون التسامي, أي سيستعملون طاقتهم الجنسية التي لم تجد لها منفذا سليما و سينفقونها في أمور العلم و الفن و الأدب و بالتالي تنشأ الحضارة. و كلمة فرويد المشهورة تصف هذه العلاقة بطريقة رائعة اذ يقول "ان أول رجل قذف كلمة بدل أن يقذف حجرة هو أول منشئ للحضارة" بمعنى أنه استعمل طاقته في غير العنف الجسماني و لكن في أمر عقلي ابداعي. و القانون يوضع ليكبح غريزة القتل و أكل لحوم البشر بمختلف صورها بالاضافة الى وضع القيود على ممارسة الجنس, و للدين حظ الأسد في وضع القيود على الحياة الجنسية, حتى انه الى يومنا هذا قد ترى الملحد العنيف في الحاده و حربه على الأديان ما يزال يتقيد بالمحرمات الدينية الأساسية (زنا المحارم) و الدول عامة تأخذ بهذا القيد و تجرم فاعله, بالرغم من اعراض أكثرهم عن قيود المواضيع الجنسية مثل اللواط و الدعارة و ما الى ذلك من تفاصيل.

فنحن هنا أمام نظرة ترى وجود علاقة قوية بين الكبت و العصاب و الحياة الجماعية و العلم و الفن. حتى لكأنها تجعلهم مترابطين برباط وثيق فيه قسط كبير من السببية. أي أن الكبت "سبب" الحضارة. و بالتالي فان زوال الكبت يفني الحضارة. فالمرض النفسي هو ثمن الحياة في ظل المدنية و الرقي الانساني بدل وحشية الصحراء و الغابات. و لذلك يرى فرويد أنه من الغباء ان يظن أحد أن الحضارة ستعطيه الحرية, اذ نحن كنا أحرارا و في قمة الحرية قبل أن تخلق الحضارة أصلا. فلقد دفعنا ثمن المدنية من حرية أنفسنا. و نستطيع أن نرى أن الحياة في جماعة هو بحد ذاته يفرض الكبت والأمراض النفسية و انقسامات النفس بغض النظر حتى عن وجود "حضارة" و مدنية. بل حتى اذا سكن أحد في الصحراء أو الغابات, فان الكبت و القيود ستوجد, بل حتى لو سكن وحده في كهف. فاني أذهب أبعد من رؤية فرويد و أرى أن الحياة بحد ذاتها تفرض قيود و كبت بغض النظر عن تفاصيل هذه الحياة. و لذلك نرى القيود و الأديان موجودة حتى عند الذين نسميهم "بدائيين" فالحضارة ناتجة عن امور أخرى و الكبت الجنسي من هذه العوامل, نعم قد يكون أقواها (و يمكن أن نجادل في هذه النقطة) و لكن ليس العامل الوحيد. و يمكن أن نجد وسيلة للتحرر من الكبت الجنسي في ظل الحضارة نفسها.

السؤال الحقيقي هو هذا: لماذا اختار الناس أن يحيوا في مدينة و تحت قيود القانون؟

فكما رأينا فان القيود عامة, و القيود الجنسية خاصة موجودة في ظل اي حياة جماعية, في الصحراء, في الجزر, في الغابات أو في الكهوف. و يوجد الكثير جدا من الدراسات التي اقيمت حول حياة هذه الجماعات, و تم اكتشاف القيود والقوانين و المحرمات الجنسية كذلك. فالحياة في المدينة لها أسباب أخرى. و في كتابي "المجتمع" رأيت أن "تيسير المعيشة" هو سبب اختيار الحياة في الجماعات عامة, و المدن خاصة. فالمدنية وسيلة لتسهيل الحصول على المعيشة و أيضا للأمن الغير متوفر في الحياة وسط الغابة مثلا. فاذا نمت في الغابة فانك لن تتفاجأ اذا استيقظت يوما و رأيت أسدا يتغذى على جثة ابنك, و لكن في المدينة يوجد أمان من مثل هذه الحوادث اللطيفة.

و نحن نتحمل قيود القانون لأنها وضعت لمصلحة تيسير تعاملات الناس (هذا اذا أغضضنا البصر عن كون القانون وضع لمصلحة الطبقة العليا الحاكمة الثرية, فنحن لن ننظر في ضرورة اصلاح المجتمع و كيفية التخفيف من الظلم الاجتماعي هنا) فالقانون في الأصل وضع للناس, و حتى يعاقب الذي يهدد أمن الناس, اذ هذا الأمن هو سبب حياتنا في المدينة, فاذا لم يرغب أحد في الأخذ بشروط الحياة المدنية فليخرج و يسيح في الأرض فأرض الله واسعة. و لكن اذا جبن عن أخذ قرار السياحة هذا و أيضا تمرد على الأخذ بشروط الحياة المدنية السليمة فاننا عندها نكون على حق اذا عاقبناه.

فاذن أساس المدنية هو تيسير المعيشة للجسم و تحقيق الأمن له. هذا هو الأساس الذي لا يمكن التنازل عنه مطلقا و يجب أن نتخذ أي اجراء مهما كلف لحفظه. و كل ما عدا ذلك يجوز التخفيف من تحظيره أو ازالة التحظير بالمرة.

(عن الكبت الضروري للحفاظ على المدنية)

ايا من هذه الغرائز الثلاثة: اللبيدو الحر, و القتل و اكل لحوم البشر يجب أن نكبت؟

أما اللبيدو الحر فلا يجوز كبته أبدا. و حريته لن تؤثر في الحضارة أبدا, بل العكس تماما هو الصحيح, فان أكثر الأمراض النفسية و الجرائم و التعقيدات الاجتماعية بل و حتى العدوان على الدول الأخرى, و الوقوع في الأوهام و الهلوسات (و هذا مضر جدا للحركة العلمية) فانه من الأثار المباشرة لكبت الغريزة الجنسية و فرض القيود والشكليات عليها.

و ما يقال من أن كبتها سبب لخلق الحركة العلمية و الفنية فهذا أمر يجب أن نعيد النظر فيه و اعطاءه حجمه الفعلي. فان الحكم على الفكرة يجب أن يكون بالميزان, فالفكرة أو القيمة التي تولد شرا أكثر من الخير يجب أن ترفض مهما كان هذا الخير. و حتى باقرار أصحاب هذا الرأي, فانهم يقرون أن الكبت الجنسي لن يجعل الا "القلة" تمارس التسامي الخالق للفن و البحث. و حتى هذه القلة لن تستطيع الا أن تسمو بجزء من طاقة اللبيدو و ليس كلها. فاذا عرفنا أن البحث العلمي و العمل الفني يمكن أيضا أن يقوم به أناس ليسوا من المرضى النفسيين بالمعنى الخاص, فهذا يزيد من ضرورة رفضنا لهذه الفكرة التي ترغب في ايقاع أكثر الناس في وديان العذاب النفسي (و الذي سينعكس أيضا على المجتمع كما هو معروف و مشاهد يوميا) من أجل بضعة أشخاص و لوح فنية! ان قيمة الفن كله مشكوك فيها الى حد ما, فاذا وضعنا امام اختيارين: أن نعذب أكثر الناس و نصنع شيء من الفن, أو نريح أكثر الناس و نكتفي بالنظر الى لوح السماء و الطبيعة فان الاختيار الثاني هو الأسلم بكل يقين. لا يوجد أي شيء مقدم على راحة الناس النفسية. اللهم الا اذا كانت راحتك النفسية تعني أن تقتل الاخرين جسمانيا فهذا مرفوض و يجب التضحية بهذه الغريزة في سبيل الأمن الاجتماعي.

فاذن كقاعدة كبرى نقول : لا يجب أن يوضع أي قيد على الحياة الجنسية. فاذا أبعدنا الاغتصاب من الصورة, لانه اعتداء على الاخر, فكل ما تبقى حر مطلق. و أي قيد غير قيد الرضا الشخصي بالممارسة (مع العلم أن هذا القيد بحد ذاته سبب كاف للامراض و الاجرام, فلنكتف به و لا نزيد من التعقيد) هو قيد مرفوض و يجب ازالته مهما كلف الأمر.

و أما القتل فيجب كبته و تحويله. فكل اعتداء جسماني على الاخرين مرفوض كليا في الحياة المدنية و هو شرط ضروري لنمو الحضارة. فنستطيع أن نحول طاقة قتل الناس الى قتل الحيوانات (اذا اضطر الأمر, برغم ان هذا اختيار ليس بذاك الحسن, بالطبع الا اذا كان القتل لضرورة و ليس فقط كتفريغ للطاقة بتحويل الغريزة) , و يمكن تحويلها الى عمل علمي نقدي أي قتل أفكار الاخرين عن طريق نقدها و تمحيصها و اقامة المناظرات الكلامية. و يمكن تحويلها أيضا عن طريق الانعزال و القيام بالخلوات باستمرار, اذ في الخلوة لا يرى الشخص أحدا من الناس فهذا يعتبر و كأنه قد "قتلهم" و أفناهم من الوجود (اذ الوجود نسبي بحسب وجودك أنت, فما لا تراه يعتبر أو ممكن أن تعتبره معدوما بالنسبة لك, فاذا قمت باتخاذ طريق عدم رؤيته باختيارك ,فنفسيا يعتبر هذا العمل و كأنه "قتل" له) و يوجد تحويلات أخرى مثل التأمل و قد نعتبره داخل في الخلوة, اذ هو خلوة نفسية أي بأن تخلي قلبك من كل صورة و ذكرى و فكرة, و هذا يمثل ابادة جماعية و لكن بطريقة راقية متسامية. و يمكن أيضا اتخاذ بعض

العقائد الدينية او الهلوسية و لكن لا نرغب في هذا لأنه يجلب ضررا كبيرا و يؤدي في النهاية الى القتل الجسماني, و كما هو معلوم فانه من أسرع طرق القتل و تبرير القتل هو أن تزعم أنك تقتل في سبيل اله.

و أما أكل لحوم البشر فيجب كبته و تحويله. و يمكن أن نقوم باستثناء وحيد و هو اذا مات الانسان موتة طبيعية او وقع عليه القصاص عدلا فعندها يمكن توفير لحمه للراغبين, مع الأخذ بعين الاعتبار التشديد في تحري "العدل و الصحة" فلا يقوم حكم القصاص الا بتحري العدل بدقة و هذا في كل شيء, و أيضا أن ننظر في أكل لحم الجسم ان كان صحيا و علاقة ذلك بالموت الطبيعي أو القصاص. و يمكن تحويل هذه الغريزة الى القراءة (فقراءة "الجسم" العلمي للاخرين هو رمز على أكل لحومهم).

و بالطبع يمكن دائما تفريغ طاقة الغرائز عن طريق الخيال و الكلام و الكتابة مثل كتابة القصص و الروايات. باختصار أي تفريغ غير التفريغ الجسماني الاعتدائي. و يجب دائما ملاحظة النفس, أي التأمل النفسي فهو قيمة من أكبر و أحسن القيم الانسانية و الحضارية. اذ الوعي بالغريزة و الوعي بالكبت و الوعي بضرورة هذا الأمر للحياة الكريمة هو بحد ذاته من أحسن طرق تخفيف أضرارهم. فالوعي بالضرر يخفف الضرر الى حد كبير, و في الكثير من الحالات يزيله تماما. و عدم الوعي بذلك يجعل المرض يتضاعف و أحيانا يتضاعف بجنون حتى يستحوذ على الحياة النفسية و العقلية و تخلق فوضى و اضطراب لا يبقي و لا يذر. التأمل من قواعد الحضارة السليمة و الراقية, بل من قواعد الحياة الفردية السليمة و الراقية.

(الخاتمة "المؤقتة")

رأينا أن الكبت و التحويل ضروري الى حد كبير في حياة كل كائن حي و اذا عاش في ظل حضارة تضاعفت الحاجة اليهما. و رأينا أنه من الغرائز الثلاثة التي توصل اليها فرويد في تحليله النفسي توصلنا الى أن الغريزة الجنسية يجب أن لا تقيد بأي شيء سوى رضا اصحاب العلاقة الشخصي. و رأينا أن غريزة القتل و اكل لحوم البشر يجب أن تكبت (و يفضل بوعي) و تحول الى أعمال علمية و فنية و تأملية. و توصلنا الى أن "التأمل" هو أعظم عمل فردي و حضاري يمكن أن يعرفه الناس على الاطلاق. هذا ما أرى ,فانظر ماذا ترى...